مكية وهي ثلاثون آية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من القرآن سورة، ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك» [1] وعن ابن عباس مرفوعاً: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ اليدُ هنا: كناية عن القدرة التامة، والاستيلاء الكامل، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء[2] ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ مبالغ في القدرة عليه، يتصرف فيه حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة.

---

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم ٢٨٩٣ وأبو داود في الصلاة رقم ١٤٠٠.

(٢) الآية الكريمة: ﴿بيده الملك﴾ تمثيلٌ لعزته تعالى وجلاله، وتصرفه الكامل في جميع الأمور، كما نقول: الدولة بيد السلطان، أي هو المتصرف في شؤونها، قال ابن عباس في تفسير الآية: ﴿بيده الملك ﴾ قال: يعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. اهـ وهو الصحيح في معنى الآية الكريمة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام الملك، وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، والمراد بالموت: الموتُ الطارىء، وبالحياة الحياة التي تكون قبل الموت، وقدَّم الموت لكونه السابق، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل، ولأن الأشياء في الابتداء، في حكم الموتى، كالتراب، والنطفة، والعلقة، ونحو ذلك، ثم طرأت عليها الحياة، وقيل: أراد موت الإنسان، وحياته بعد البعث من القبور، والموتُ نعمة كالحياة، لأنه الفاصل بين حال التكليف، وحال المجازاة، وهو القنطرة للعبور إلى دار الخلود، فإن الدنيا جسرٌ ومعبرٌ للآخرة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف بالأوامر والنواهي ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه وأصوبه، فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السُنَّة، والمقصد الأصلي من الابتلاء، هو ظهور إحسان المحسنين، مع تحقُّق أصل الإيمان، وفيه من الترغيب في الترقي إلى معارج العلوم، ومدارج الطاعات، والزجر عن نواقضها ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب وأناب.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي الذي أبدع خلق السموات، فجعلها سبع سموات ﴿طِبَاقًا﴾ أي متطابقة بعضها فوق بعض، سماء فوق سماء ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل مخاطب ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي من اختلاف، ومن عيب، وحقيقة التفاوت عدم التناسب من

الفوت، وقيل: التفاوتُ: الفطور، بدليل قوله تعالى: ﴿هل ترى من فطور﴾؟ فالمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي كرِّر النظر إلى السماء، فانظر إليها، مرة بعد مرة، متأملاً فيها، حتى يتضح لك ذلك ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ؟ أي صدوع وشقوق، جمع فِطْر، وهو الشِقُّ، والمراد به الخَلَل.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل، والمراد بالتثنية التكرار والتكثير، كما في لبيك وسعدَيْك، أي رجعةً بعد رجعة، وإن كثرت ﴿يَنقَلِبْ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي بعيداً ومحروماً من إصابته ما التمسه من العيب والخلل، كأنه طُرد عنه طرداً بالصَّغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من طول المعاودة، وكثرة المراجعة، ولم ير فيها خللاً، لأن الله أتقنها وأحكمها.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بيانٌ لكون خلق السماوات، في غاية الحسن، إثْر بيان خلوِّها عن شائبة القصور، وتصدير الجملة بالقَسَم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي وبالله لقد زينا أقرب السماوات إلى الأرض، وهي التي يراها الناس ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بالكواكب المضيئة بالليل، إضاءة السراج، من النجوم السيارات والثوابت، تتراءىٰ كأنها مركوزة فيها، مع أنها في هذا الفضاء الواسع، الذي لا يعرف مقدار سعته إلا الله رب العزة والجلال ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى، هي رجم أعدائكم الشياطين، بانقضاض الشهب المقتبسة من نار الكواكب ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي للشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة، وهي النار الموقدة، فإن

قيل: إن الشهب كانت موجودة قبل بعثة النبي ﷺ، فكيف أصبحت رجوماً للشياطين؟ فالجواب عن ذلك: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي ﷺ قد توجد بسبب آخر، وهو دفع الجن عن استراق السمع، قيل للزهري: أكان يُرمَىٰ في الجاهلية بالشهب؟ قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابَاً رَصَداً﴾ قال: غَلُظَتْ واشتد أمرها حين بُعِث النبي ﷺ.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمقرُّ.

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا﴾ أيُ طرحوا في جهنم ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً منكراً كصوت الحمار ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي تغلي بهم غليان المرجل بما فيه، هذا من فور الغضب، يقال: تركتُ فلاناً يفور غضباً، ويتأكد هذا بقوله تعالى:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي تتميز وتتفرق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ﴾ أي من شدة الغضب عليهم، يقال: فلان يتميز غيظاً إذا وصفوه بالإفراط فيه، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ وهو تمثيل لشدة اشتعالها ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفرة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع، ليزدادوا عذاباً فوق عذاب ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أي ألم يأتكم رسول يخوّفكم من هذا العذاب؟.

﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ أي قال كل فوج من الأفواج قد جاءنا نذير فأنذرنا، وتلا علينا ما نزَّل الله عليه ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ ذلك النذير، في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿ وَقُلْنَا ﴾ في حق ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ على أحد ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ أي ما أنتم في ادعاء أنه تعالى نزل عليكم آيات تنذروننا بما فيها ﴿ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ أي بعيد عن الحق والصواب.

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمع أو يعقل ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ الإنذار من الرسل، فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم من المعجزات ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ عقل متأمل، ونفهم ونتفكر في حكمه تفكر المستبصرين ﴿ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ في جملة أهل النار، وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة الشرع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان.

﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ بكفرهم، في تكذيبهم الرسل، حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿ فَسُحْقًا ﴾ مصدر وقع موقع الدعاء، أي فبعداً لهم وهلاكاً، سحقهم الله سحقاً، وأبعدهم الله من رحمته، ومن دار كرامته ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ هم الشياطين، والداخلون في عدادهم من الكفار والفجار.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يخافون ربهم ولم يروه، وكفُّوا عن المعاصي، قبل معاينة العذاب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا يُقادر قدرُه.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ بيان لتساوي السر والجهر، بالنسبة إلى علمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ ومَنْ جَهَرَ بِهِ﴾[1] قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ، فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، كي لا يسمع إله محمد، فيخبره بما تقولون، فقيل لهم: أسروا ذلك القول، أو اجهروا به، فإن الله يعلمه، ولا تخفى عليه سبحانه خافية. واللفظ عام لجميع الخلق، أي فاحترزوا من المعاصي سراً، كما تحترزون جهراً، وتقديم السر على الجهر، لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة الجهر، إذ ما من شيء يُجهر به، إلا وهو مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً، فيتعلق علمه تعالى به ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بضمائرها، قبل أن تترجم الألسنة عنها، كأنه قيل: إنه تعالى مبالغ بمضمرات جميع الناس، وأسرارهم المستكنّة في صدورهم.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؟ إنكار ونفي لعدم إحاطة علمه تعالى بالمضمر والمظهر، أي ألا يعلم السر والجهر، من أوجد جميع الأشياء التي هما من جملتها؟ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ حال من فاعل يعلم مؤكده للإنكار، اللطيفُ أي العالم بدقائق الأشياء، الخبير بحقائق الأمور.

---

(١) سورة الرعد، آية: ١٠.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ أي ليِّنة سهلة، يسهل عليكم السلوك فيها ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ أي في جوانبها وفي جبالها وطرقها ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ والتمسوا من نعم الله تعالى فيها ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي المرجع، فيسألكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني الملائكة الموكّلين بتدبير هذا العالم، أو الله على تأويل من في السماء أمره وقضاؤه، وقال ابن عباس: «عقاب من في السماء، وهو متعال عن الخلق»[1] ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أن يغوِّر بكم الأرض بعدما جعلها لكم ذلولاً، تمشون في مناكبها، وتأكلون من رزقه، لكفرانكم تلك النعمة ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ أي تضطرب وتتحرك، على خلاف ما كانت ثابتة عليه.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ حجارة من السماء، كما

(١) قال ابن تيمية في الفتاوى ٣/ ١٤٣: ويُصان جلَّ وعلا عن الظنون الكاذبة، مثل أن يُظن أن ظاهر قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ أن السماء تقلُّه ـ أي هو محصور فيها ـ أو تظلُّه، فهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيُّه السموات والأرض!!.

فعل بقوم لوط، وأصحاب الفيل ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب عند الموت، وفي الآخرة ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف إنذاري وعقابي للمكذبين؟.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل كفار مكة، كقوم نوح، وعاد، وأضرابهم، والالتفات لإبراز الإعراض عنهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم؟ إذْ أهلكتهم بإنزال العذاب، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول ﷺ وتشديد التأكيد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا؟ ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الهواء ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهنَّ، وهو السر في إيثار «يقبضن» الدال على التجدد على قابضات، والطيران في الهواء، كالسباحة في الماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجو عن الوقوع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الشامل برحمته لكل شيء، وإلاّ فالثقيل يتسفَّل طبعاً ولا يعلو ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ تبكيت لهم، بنفي أن يكون لهم ناصر من عذابه تعالى، أي من هذا الذي يستطيع أن يدفع عنكم عذاب الله، إن أراد الله تعالى إهلاككم؟ هل آلهتكم المزعومة تستطيع نصرتكم وحمايتكم؟

و«أم» منقطعة مقدَّرة ببل، المفيدة للانتقال من توبيخهم على ترك التأمل، فيما يشاهدونه من أحوال الطير، إلى تبكيتٍ آخر ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي ينصركم متجاوزاً نصر الرحمٰن؟ فهو كقوله تعالى: ﴿أم لهم آلهة تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُوننا﴾؟ ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي ما هم إلا في غرور، في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب، بحفظ آلهتهم لهم، وزعمهم هذا ضلال واضح بيّن.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ ﴿رِزْقَهُ﴾ بإمساك المطر، وإنبات الزرع، فمن يستطيع أن يمنحكم أسباب الرزق، إن منعها الله عنكم؟ هل هناك إله غير الله يقدر عليه؟ وأسباب الرزق متعددة: الماء، والهواء، والشمس، والريح، والشجر، والثمر، وكلُّها بيد الخلاَّق جلَّ وعلا، ولهذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿بَل لَّجُّوا﴾ أي تمادَوْا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ أي في عنادٍ واستكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا، والنفور بسبب جهلهم بالدين، والمعنى: بل تمادى الكفار في الطغيان، وأصروا على الكفر والعصيان.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للمشرك والموحِّد، توضيحاً لحالهما، والفاء لترتيب سوء حالهم، وخرورهم في مهاوي الغرور، وعدم اهتدائهم إلى جهة يتوهم فيها رشد في الجملة، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر كل ساعة، ويخر على وجهه في كل خطوة، لتوعر طريقه، واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمُّه، وهو الكافر الذي أكبَّ على الكفر والمعاصي ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي يمشي قائماً معتدلاً، يبصر الطريق سالماً من العثور والخرور ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على

طريق مستو لا عوج فيه، ولا انحراف؟ وهو المؤمن المستمسك بدين الإسلام[1].

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ أي خلقكم خلقاً بديعاً ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ لتسمعوا آيات الله، وتتعظوا بمواعظها ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لتنظروا بها آثار قدرته، وتروا الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ لتفكروا بها وتعتبروا، خصَّها بالذكر، لأنها آيات العلم ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أي باستعمالها فيما خلقت لأجله، فشكرِ نعم الله، صرفها في مرضاته.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي خلقكم وبثكم وكثَّركم فيها لا غيره ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة للجزاء.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أي الكافرون للمؤمنين استهزاءً ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾؟ أي متى

---

(١) هذا تمثيل رائع، وتصوير بديع، جمع بين جمال التمثيل، وروعة التعبير، وكأنه يقول: هل من يمشي كالدابة، منكّس الرأس، أعمى القلب والعين، لا يبصر يميناً ولا شمالاً، ولا يرى ما أمامه، فهو يخبط خبط عشواء، ويتعثر بين حين وحين في مشيه، لأنه لا يبصر الطريق، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه فهو آمن من العثار، لأنه يمشي في وضح النهار، يسير على طريق مستقيم، لا اعوجاج له ولا التواء؟ أيهما أهدى سبيلاً، وأحسن دليلاً؟ قال ابن عباس: هذا مَثَلٌ لمن سلك طريق الضلالة، ولمن سلك طريق الهدى!!.

يكون الحشر والجزاء الذي تعدوننا به؟ كما ينبىء عنه قوله سبحانه ﴿وإليه تحشرون﴾ أو ما وُعدوا به من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطبون به النبي ﷺ والمؤمنين، والجواب محذوف، أي إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به، فبيِّنوا لنا وقته؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي العلم بوقته عند الله عزَّ وجلَّ، لا يطَّلع عليه غيره ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ أي مخوِّف أُنذركم عذاب الله، ووقوع الموعود لا محالة ﴿مُّبِينٌ﴾ أي أبيِّن لكم الشرائع.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الفاء فصيحة معربة عن تقدير جملة، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه، فلما رأوه ﴿زُلْفَةً﴾ أي قريباً منهم ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ أي ساءت رؤية الموعود ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واسودت بأن علتها الكآبة، وغشيتها القَتَرةُ، وظهرت عليها آثار الاستياء من الذل والهوان ﴿وَقِيلَ﴾ تشديداً لعذابهم، والقائلون هم الزبانية ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي تسألون تعجيله، إنكاراً واستهزاءً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ أي إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين، والتعبير عنه بالإهلاك، لما أنهم كانوا يدعون عليه وعلى المؤمنين بالهلاك ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته،

متربصون لإحدى الحسنيين ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ ينجي ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي مؤلم، أي من يحميكم من عذاب الله المؤلم الوجيع؟ ومن الذي يجيركم وينجيكم من غضبه وانتقامه؟ هل تظنون أن الأصنام تخلّصكم من عذاب الله؟.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، مولي النعم كلها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي صدقنا به وحده، ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي فسوف تعلمون من هم أهل الشقاء والضلالة، منا ومنكم؟ وهذا تهديد شديد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، أي ذاهباً في أعماقها ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي جارٍ متدفق، فائض سهل المأخذ، فلا بد أن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون الأصنام شريكاً له؟ تليت هذه الآية عند ملحد، فقال: نأتي به بالمعول، فنام تلك الليلة ثم استيقظ وقد ذهب ماء عينه!! والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الملكُ»

* * *

سُورَةُ القَلَمِ

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾.

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، من أسماء الحروف الهجائية المقطَّعة، مثل: ألف، ولام، وميم، ذُكر للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية، والبشر مع ذلك عاجزون عن الإتيان بمثله، وأما قول الحسن: إنه الدواة، وقول ابن عباس: إنه الحوت، فمشكلٌ ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ الواو للقسم، وأُريد بالقلم الجنسُ، لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزية، سوى كونه آلة لتحرير كُتب الله عزَّ وجلَّ، لكفى به فضلاً، وموجباً لتعظيمه[1] ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم، كأنه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم.

---

(١) في القسم بالقلم والكتابة، إشادة بفضل العلم والعلماء، وتنبيه على قيمة الكتابة والدراسة، فإن القلم أخو اللسان، وهو نعمة من الرحمن على عباده، فالإنسان من بين سائر المخلوقات، هو الذي خصَّه الله وشرَّفه بمعرفة القراءة والكتابة، ليفصح عمَّا في ضميره، ولا يمكن لسائر الحيوانات أن تتفاهم عن طريق المراسلة والكتابة، إنما تتفاهم بالأصوات، وحسبك دليلاً على شرف القلم، أن الله عزَّ وجل أقسم به هنا، كما أن أول آيات الوحي المنزَّل فيها إشادة بالقراءة والكتابة: ﴿الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أي بإنعامه عليك بالنبوَّة، أنت يا محمد بريء من الجنون، وهو جواب لقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إنه تعالى وصفه ﷺ بثلاثة أنواع من الصفات:

الأولى: نفي الجنون عنه، بنعمه الظاهرة، من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضيَّة وللاتصاف بكل مكرمة، فوجود هذه النعم ينافي حصول الجنون.

والثانية: الأجر الكبير الدائم.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أي إن لك في دعاء الخلق إلى الله تعالى، المنزلة الرفيعة العالية، والثواب الكَبير غير المقطوع، وإحراز هذا المقام ينافي الجنون.

والثالثة: الخُلُق العظيم الذي خصَّ به الرسول ﷺ.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أنت يا محمد على جانب عظيم، من الأدب الرفيع، والخلق الكريم، ولقد نسبوه إلى الجنون ـ وحاشاه ـ حسداً وعداوة، ومكابرة، مع جزمهم بأنه ﷺ في غاية الغايات القاصية، من حصانة العقل، ورزانة الرأي، ولمّا كانت أخلاقه الحميدة كاملة، وصفها الله تعالى بأنها عظيمة، وفيها دقيقة أخرى، وهي كلمة «على» للاستعلاء، فدلَّ اللفظ أنه ﷺ مستعلٍ على خُلُق عظيم، كما رُوي عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً..» الحديث. وحقاً!! لقد تمثلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم

فالصدق، والبرُّ، والحلمُ، والحياء، والصبرُ، والشجاعة، والعزة، والتواضع، والعفة، والوفاء، كلُّ أولئك كانت من صفاته البارزة، التي قرَّبته إلى القلوب، فتعلَّق الناس به، وتركوا في حبه جاهليتهم وآباءهم وأبناءهم.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي عن قريب ترى ويرون من هو المجنون؟ هل أنت أم هم؟ وهذا وعدٌ له، ووعيد له، والمراد به يوم القيامة، سيظهر بجلاء أمرك وأمرهم، وقيل: في الدنيا بظهور الإسلام، واستيلائك عليهم، وصيرورتك مهيباً ومعظَّماً في قلوب العالمين.

﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾؟ أي المجنون، والباء مزيدة، أو بأي الفريقين بفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين، في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم، كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنَ الكذَّابُ الأَشِرُ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعليل لما قبله من ظهور جنونهم، بحيث لا يخفى على أحد، أي هو أعلم بمن ضل عن سبيله المؤدي إلى سعادة الدارين، وهام في تيه الضلال، متوجهاً إلى الشقاوة الأبدية، وهذا هو المجنون الذي لا يفرِّق بين النفع والضرر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي هو أعلم بالعقلاء المهتدين إلى سبيله، الفائزين بكل مطلوب، والناجين من كل محذور، فيجزي كلاً من الفريقين، حسبما يستحقه من العقاب والثواب، وإعادة ﴿هو أعلم﴾ لزيادة التقرير.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي كفار مكة، وهذا تهييج له للتصميم على معاداتهم، فقد أرادوا منه أن يعبد الله مدة، وآلهتهم مدة، ويكفوا عنه غوائلهم!! والمعنى: دم يا محمد على ما أنت عليه، من عدم طاعتهم، وإنما عبَّر بالطاعة للمبالغة في الزجر، والنهي عن مداهنتهم ومداراتهم، استجلاباً لقلوبهم، كما ينبىء عنه قوله تعالى:

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ أي تمنوا لو تلين لهم يا محمد، وتترك بعض ما لا يرضونه، وتسامحهم في بعض الأمور، فهم يدهنون حينئذ طمعاً في إدهانك.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل، وتقديمُ هذا الوصف على سائر الأوصاف، لكونه أدخل في الزجر ﴿ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير الرأي والتدبير، من المهانة وهي الحقارة، نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي عيَّاب، طعان، مغتاب ﴿ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ نقَّال للحديث على وجه السعاية والإفساد.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ بخيل ممسكٍ عن الإنفاق، ويمنع الناس عن الخير والإنفاق ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ متجاوز في الظلم حدَّه ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الآثام.

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ عُتُلٍّ ﴾ غليظ، جاف، لئيم النفس ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعدما عُدَّ من الصفات المذمومة ﴿ زَنِيمٍ ﴾ هو ولد الزنا، روي أنه دخل على أمه، وقال لها: «إن محمداً وصفني بعشر صفات، وجدتُ تسعاً فيَّ، فأما الزنيم فلا علم لي به، فإن أخبرتني بحقيقته، وإلاَّ ضربت عنقك!! فقالت: إنَّ أباك عنِّين، وخفتُ أن يموت ويذهب ماله إلى غيره، فدعوت راعياً إلى نفسي، فأنت من ذلك الراعي!! ولا غرابة فالنطفةُ إذا خبثت خبث الناشىء منها.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ أي لا تطعه مع هذه المثالب والمعايب، لأن كان ذا مال وبنين، أي ليساره وحظه من الدنيا.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي يقول عن القرآن العظيم: إنه خرافات وأباطيل الأولين!!.

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ كنَّى عن الأنف بالخرطوم، إذلالاً له وإهانة، لأن الخرطوم للخنزير، أي سنكويه على أنفه، مهانة له، وعَلَماً يُعرف به، وتخصيصُ الأنف بالذكر، لأن الوسم عليه أبشع وأشنع.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي أهل مكة بالقحط، بدعوة رسول ﷺ ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ

﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة، كانت لأبيهم هذه الجنة، قرب صنعاء باليمن، فكان يأخذ منها قوت سنة، ويتصدق بالباقي، وكان ينادي الفقراء وقت الصِّرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل، وما أخطأه القِطاف من العنب، فكان يجتمع لهم شيء كثير، فلما مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا، ضاق علينا الأمر، فحلفوا فيما بينهم وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي لا يقولون إن شاء الله، أو لا يستثنون حصة المساكين، كما كان يفعله أبوهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي على الجنة ﴿طَآئِفٌ﴾ أي فجاءها بلاء من السماء ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ من جهته تعالى ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عما جرت به المقادير، والطائف لا يكون إلا ليلاً، أي طرقها طارقٌ من عذاب الله.

قال الكلبي: أرسل الله تعالى عليهم ناراً، فأحرقت الشجر والثمر.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صرمت ثمارُه، بحيث لم يبق منها شيء، فعيل بمعنى المفعول.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ﴿مُصْبِحِينَ﴾ عند الصبح الباكر.

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ أَنِ ٱغْدُواْ ﴾ أي اخرجوا في الصباح الباكر، قبل أن ينتبه الفقراء، ومعنى الغدوّ: الذهاب في الصباح المبكّر ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ يعني الثمار، والزرع، والأعناب ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ قاطعين له.

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ فَٱنطَلَقُواْ ﴾ أي ذهبوا ﴿ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ أي يتسارون فيما بينهم، لئلا يسمع المساكين.

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ﴾ أي الجنة ﴿ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ أي لا تمكنوه من الدخول.

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أي على قصد وعزم، وقيل: على نَكَدٍ من حاردت السَّنَةُ إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبلُ إذا منعتْ درَّها ﴿ قَٰدِرِينَ ﴾ عند أنفسهم على صرامها.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾ أي أول ما رأوها محترقة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ أي ضللنا طريق جنتنا وما هي بها، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا:

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعقلهم وأعدلهم رأياً ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خبث نيتكم؟.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي بمنعنا المساكين، فتكلموا بعد خراب البصرة ـ أي البستان ـ، وأقرُّوا على أنفسهم بالظلم في منع المعروف.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت، ومنهم من أنكره، فأصبح كل واحدٍ يحيل باللائمة على الآخر!! ثم اعترفوا جميعاً بأنهم تجاوزوا الحدَّ.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ دعوا على أنفسهم بالويل ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أي متجاوزين حدود الله، في حق الفقراء والمساكين، ثم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا:

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا ﴾ أي يعطينا بدلاً منها، ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة ﴿ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ أي من هذه الجنة ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ أي طالبون الخير، وراجون العفو منه تعالى.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ ﴾ أي مثل ذلك العذاب الدنيوي الذي ذكرناه، نعذب من سلك سبيلهم ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ ﴾ أي أعظم وأشدُّ ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه أكبر، لاحترزوا عما يؤديهم إليه.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي جنات ليس فيها إلاَّ التنعُّم، الخالص عن شائبة الزوال، وما ينغّصه من الكدِّ والتعب.

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ تقرير لما قبله، وردٌّ لما يقوله الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صحَّ أنا نُبعث، لم يكن حالنا وحالهم، إلاَّ مثل ما هو في الدنيا، يعطينا الله ويكرمنا، كما أكرمنا في الدنيا.

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾؟! تعجيب من حكمهم، واستبعاد له، وإشعارٌ بأنه صادرٌ من اختلال فكر وعقل، وهو التسوية بين المطيع والعاصي.

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ ﴾ نازل من السماء ﴿ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ أي تقرؤون.

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ أي ما تتخيرونه وتشتهونه.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا ﴾ أي عهود مؤكدة بالأيمان ﴿ بَٰلِغَةٌ ﴾ متناهية في التوكيد ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ إن لكم لما تحكمون أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة، لا نخرج عن عهدتها، حتى نعطيكم ما تحكمون، أم هو مجرَّدُ الافتراء على الله؟!.

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أي سلهم مثبتاً لهم ﴿أَيُّهم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم الخارج عن العقول ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي كفيل وضامن؟.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ﴾ يشاركونهم في هذا القول ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ في دعواهم، إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه تعالى في هذه الآية على أن ليس لهم شيء، يتوهم أن يتشبثوا به حتى التقليد.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ الجمهور على أن الكشف عن الساق، عبارة عن شدة الأمر وصعوبته، والمعنى يوم يشتد الأمر ويصعب، ولا كشف ولا ساق، ولكن كنى بها عن الشدة، ومثله قول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، وحمي الوطيسُ ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ أي يدعى الكفار إلى السجود لله رب العالمين، لا تكليفاً، ولكنْ توبيخاً وتعنيفاً، على تركهم إياه في الدنيا، وتحسيراً لهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لزوال القدرة عليه، لأن ظهر أحدهم يصبح طبقاً واحداً، فلا يقدرون على الانحناء أو السجود.

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ أي يغشاهم وتلحقهم ﴿ ذِلَّةٌ ﴾ أي صَغَارٌ وهوان ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ ﴾ على ألسن الرسل ﴿ إِلَى ٱلسُّجُودِ ﴾ في الدنيا ﴿ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ أي وهم أصحاء متمكنون منه، فلا يجيبون إليه، وكذلك يدعون إلى الصلاة، بالأذان والإقامة في الجماعة، فلا يلبُّون إليها، وفي هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة.

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ ﴾ أي دعني والمكذبين بالقرآن، وخلِّ بيني وبينهم، ولا تُشغل قلبك بهم، فسأنتقم لك منهم، وليس هناك مانع يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسان: دعني وهذا الظالم لأكفيك شرَّه. وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتهديد للمكذبين ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ أي نأخذهم بطريق الاستدراج خطوةً خطوة، يقال: استدرجه إليه استنزله درجةً درجة، حين يورِّطه فيه، واستدراجهم بالإمهال، وإدامة الصحة، وازدياد النعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي ﴿ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إنه استدراج بل يزعمون أنه إيثار على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم.

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ ﴾ أي أمهلهم فلا أعجلهم بالعقوبة، ليزدادوا إثماً ﴿ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أي قوي شديد، لا يدفع بشيء، وتسميته كيداً لكونه في صورة الكيد، حيث كان سبباً للهلاك، ولا يجوز أن يسمى الله كائداً، ماكراً، مستدرجاً، لأن صفات النقص لا تنسب إليه تعالى، وأسماؤه توقيفية.

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾؟ أي هل تطلب منهم أجراً حتى يثقلهم ذلك ويمنعهم من الإيمان؟.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ أو المغيَّبات ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم، وإن أُمهلوا لم يهملوا ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي كيونس عليه السلام، في العجلة والغضب على القوم ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي حين دعا ربه في بطن الحوت: ﴿لا إله إلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غيظاً وغماً، من كَظَم السقاء إذا ملأه، أيْ لا يكن حالك كحاله وقت ندائه، أي لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر، والمغاضبة، فتبتلىٰ ببلائه.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي رحمة، وهو التوفيق للتوبة، وقبولها ﴿لَنُۢبِذَ﴾ أي لطُرح من بطن الحوت ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالفضاء الواسع ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي وهو ملام على ما ارتكب، يعني لولا هذه النعمة، لنبذ بالعراء مع الذمِّ له، لكنَّ الله أنعم عليه بالتوبة والإنابة، فلم يلحقه شيء من الذم.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اصطفاه واختاره لنفسه ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي جعله من الكاملين في الصلاح.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي إنهم من شدة عداوتهم لك، ينظرون إليك ويكادون أن يصرعوك بأعينهم، ويهلكونك بنظرات مسمومة قاتلة لشدة بغضهم، والإصابة بالعين حق، ومن الناس من أنكر ذلك، ولا يستبعد أن يكون لبعض النفوس خاصية في التأثير، فالاحتمال العقلي قائم، والدلائل السمعيّة ناطقة بذلك، روى مسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيء سابق القَدَر سبقته العين»[1] وقيل: العين حقٌّ تدخل الرجل القبر، والجمل القِدْر، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ عليه هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي وقت سماعهم القرآن تتلوه عليهم، لأنهم كانوا يكرهون سماعه أشد الكراهية، ويحدُّون النظر إليه ﷺ بالبغضاء ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أمره ﷺ، وجهلهم بحاله ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ لتنفير الناس عنه، وحيث كان مدار حكمهم الباطل، ما سمعوه منه ﷺ، ردَّ الله ذلك ببيان علو شأنه، فقال تعالى:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وليس هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي موعظة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي للإنس والجن، فكيف يُنسب من نزل عليه القرآن للجنون؟ والآية مفيدة لبطلان قولهم، وتعجيب السامعين من جرأتهم على تفوّه ذلك، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القلم»

* * *

(١) أخرجه مسلم رقم ٢١٨٨ في باب الطب، والترمذي رقم ٢٠٦٣.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مكية وهي إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ ﴾.

﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ الساعة الواجبة الوقوع يعني القيامة، التي هي آتية لا ريب فيها، التي تتحقق فيها الأمور، من الحساب والجزاء.

﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ الأصل الحاقة ما هي؟ أي أيُ شيء هي؟ فوضع الظاهر موضع الضمير، لزيادة التهويل.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ أعلمك ﴿ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ تأكيد لهولها، ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أن عظم شأنها وشدتها، بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد لأنها أعظم من ذلك.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ أي بالحاقة، فوضعت القارعة موضعها لأنها من أسماء القيامة، سميت بها لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال،

فلمَّا ذكرها وفخَّمها، ذكر من كذَّب بها، وما حلّ بهم، تذكيراً لأهل مكة، وتخويفاً لهم، من انتقام الله عزَّ وجل منهم، لتكذيبهم سيد المرسلين.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة، وهي الصيحة الشديدة، كما قال سبحانه: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ أي ريح شديدة العصف، كأنها عتَتْ على خزنتها، فلم يستطيعوا ضبطها.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي سلَّطها عليهم بالقدرة القاهرة ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ ﴾ من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وهي أيام العجوز سميت بذلك لأن عجوزاً من عاد، توارت في سرب، فانتزعتها الريح فأهلكتها ﴿ حُسُومًا ﴾ أي متتابعة متوالية، لا تفتر ولا تنقطع، تستأصل الناس استئصالاً ﴿ فَتَرَى ﴾ أيها المخاطب ﴿ ٱلْقَوْمَ ﴾ إذا كنت حاضراً حينئذ ﴿ فِيهَا ﴾ في تلك الليالي والأيام ﴿ صَرْعَىٰ ﴾ موتى قد صرعهم الموت، فأصبحوا جثثاً هامدة، جمع صريع ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي يشبهون ﴿ أَعْجَازُ ﴾ أصول ﴿ نَخْلٍ ﴾ جمع نخلة ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ بالية وساقطة على الأرض.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾؟ أي فهل ترى أحداً من بقاياهم، أو من نفسٍ باقية؟.

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ ﴾ أي من تقدَّمه من الأمم ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ ﴾ أي قوم لوط، وهم الذين انقلبت بهم ديارهم، حيث جعل الله عاليها سافلها، ولذا سميت بالمؤتفكات ﴿ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ أي بالأفعال ذات الخطأ العظيم، وهي الشركُ، والتكذيب بالبعث.

﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها، حين نهاهم عما كانوا يتعاطونه من القبائح ﴿ فَأَخَذَهُمْ ﴾ الله عز وجل ﴿ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ أي زائدة شديدة، كما زادت قبائحهم في القبح.

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ ﴾ أي ارتفع وزاد عن حدّه وقت الطوفان، بسبب إصرار قوم نوح على فنون الكفر والمعاصي ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، والمراد بحملهم فيها، رفعهم فوق سطح الماء، وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا، وفيه تنبيه على أن مدار نجاتهم محض عصمته تعالى، إنما السفينة سببٌ صوري.

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ ﴾ أي الفعلة، وهي إنجاء المؤمنين ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ أي عبرة

وتحفظها ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه، بتذكّره وإشاعته، والتفكير فيه، والوعيُ: أن تحفظ الشيءَ في نفسك، والإيعاءُ أن تحفظه، في غيرك، وَعَيْتُ العلم والحديث وعياً، أي حفظته.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النفخة الأولى، وهو شروعٌ في بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها، إثر بيان عِظم شأنها.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي قلعت ورفعت عن أماكنها، بمجرد قدرة الله تعالى، وارتطم بعضها ببعض ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي دُقَّتا وكُسرتا، أي فضربت الأرض والجبال إثر رفعهما، بعضُها ببعض، ضربة واحدة، فيصير الكل هباءً منبثاً، وذرات متناثرة، وإذا كان هذا حال الجبال، فكيف بحال الرجال في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي نزلت النازلة، وقامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي فُتحت أبوابها لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي السماء ﴿يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة، ساقطة القوة.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ﴾ أي والملائكة على جوانبها، جمع رجا بالقصر:

الناحية، وجمعه أرجاء، مثل سبب وأسباب، قال الضحاك: تكون الملائكة على حافتها، حتى يأمرهم الرب تبارك وتعالى، فينزلون فيحيطون بالأرض ومن عليها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ من الملائكة، روي أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين، فيكونون ثمانية وعن ابن عباس والضحاك ثمانيةُ صفوفٍ لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال بعضهم: وجود العرش لبيان عظمته تعالى، لا لاحتياجه إليه، لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء معه، ثم خلق العرش، فالعرش والكرسي مظاهر عظمة الله وجلاله، فعلمنا أنه تعالى خاطبهم فيما يتعارفون، فخلق لنفسه بيتاً يزورونه هو الكعبة المشرَّفة، وجعل في ركن البيت حَجَراً، وهو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس أنه عز وجل مسكنه في البيت، ويمينه فيه، وهو تمثيل لعظمته تعالى، بما يشاهد من أحوال السلاطين، يوم خروجهم على الناس، للقضاء العام، وإلاَّ فشؤونه سبحانه أجلُّ من كل ما تحيط به تلك العبارة والإشارة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال، أي تسألون وتحاسبون، عبَّر عنه بذلك، تشبيهاً بعرض السلطان العسكر، لتعرُّف أحوالهم، وهذا ـ وإن كان بعد النفخة الثانية ـ لكنْ لمَّا كان اليوم، اسماً لزمانٍ متسع، تقع فيه النفختان، والصعقة، والنشورُ، والحساب، صحَّ جعلُه ظرفاً للكل ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تعرضون على ملك الملوك جلَّ وعلا، غير خاف عليه تعالى سرٌّ من أسراركم، وإنما العرض لإفشاء الحال، والمبالغة في العدل، وفيه أعظم الزجر والوعيد، وهو خوف الفضيحة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل للعرض ﴿فَيَقُولُ﴾ سروراً به

وابتهاجاً، لما يرى فيه من الخيرات، خطاباً لجماعته وأقربائه ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل أمر أي خذوا ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ والهاءُ فيه وفي حسابيه، وماليه، وسلطانيه، للسكت، تثبت في الوقف، وتسقط في الوصل، واستحسن الوقفُ عليها.

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي علمت، وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب، يقوم مقام العلم، في العبادات والأحكام، أي إني كنتُ أظن أني ألاقي حسابي، فيؤاخذني ربي بسيئاتي، فقد تفضَّل عليَّ بالعفو، ولم يؤاخذني بها، فخذوا اقرأوا كتابيه، قال تعالى:

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا، يرضى بها صاحبها، لكونها صافية عن الشوائب، دائمة مقرونة بالتعظيم، فالشيء إنما يكون مرضياً به، إذا كان مشتملاً على هذه الصفات.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة لأنها في السماء، أو الأبنية.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قُطُوفُهَا﴾ أي ثمارها جمع قِطف، وهو ما يجتنى بسرعة ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة من مريدها، ينالها القائم، والقائد، والمتكىء، ويقال لهم:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ والجمع باعتبار المعنى ﴿هَنِيئًا﴾ أي أكلاً وشرباً لا مكروه فيهما ولا أذى ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدمتم من الأعمال الصالحة، وكلُّ عمل صالح قدمته، وكل من تقدمك فهو سلف ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبح العمل، وسوء العاقبة، ولما حصل من الخجل والافتضاح ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ وهذا ينبِّهك أن العذاب الروحاني، أشدُّ من العذاب الجسماني.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أي يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَا لَيْتَهَا﴾ يا ليت الموت منها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمري، ولم أبعث بعدها، ولم ألق ما ألقاه والضمير في ﴿يا ليتها﴾ يرجع للحياة الدنيا، أي يا ليت الحياة الدنيا، كانت الموتة النهائية، ولم أخلق حياً، تمنى الموت لأنه رأى تلك الحالة، أشنع وأمرّ مما ذاقه من الموت.

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه ﴿٢٨﴾﴾.

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ أي لم ينفعني ما جمعتُه في الدنيا من المال والأتباع، على أن «ما» نافية، أو استفهامية للإنكار، أيْ أيَّ شيءٍ أغنى عني ما كان لي من اليسار؟.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ أي زال عني سلطاني، فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم:

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ أي شدُّوه بالأغلال، فاجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ أي أدخلوه النار المتأججة، نار الجحيم وهي النار العظمى، لأنه كان يتعظم على الناس، ليكون الجزاء على وفق المعصية.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ﴾ وهي حلقات منتظمة، كرٌّ حلقة منها في حلقة ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ أي طولها بذراع المَلَك، وليس الغرض التقدير بهذا المقدار، بل الوصف بالطول، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ يريد به مرات كثيرة، قال الحسن: الله أعلم بأيِّ ذراع ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ أي فأدخلوه فيها، بأن تلقوه على جسده، وهو مرهق لا يقدر على حركة.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ تعليل، وذكر العظيم للإشعار بأنه تعالى هو المستحق للعظمة، فمن تعظَّم على الله، استوجب أعظم العقوبات.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولا يحث على إطعامه، فضلاً عن أن يبذل من ماله، وذكرُ الحضِّ للإشعار بأن تارك الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف تارك الفعل وتخصيص الأمرين بالذكر، لأن أقبح الذنوب: الكفر بالله، وأشنع الرذائل: البخلُ وقسوة القلب، وفيه دلالة على عظم جرم حرمان المساكين، لأنه تعالى عطفه على الكفر.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريب يحميه ويرفع عنه ما يحترق له قلبه، لأن الأولياء يفرُّون منه، كقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار، من الغسل، والنونُ زائدة، وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم[2]، وقيل: هو شجر يأكله أهل النار.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أي الكافرون، الذين يتعدون حدود الله.

---

(١) سورة غافر، آية: ١٨.

(٢) إن قلت: كيف قال هنا ﴿ولا طعامٌ إلا من غسلين﴾ وقال في موضع آخر ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفي آخر ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ فالجواب: إن العذاب أنواع، والمعذبون طبقات، فمنهم من يكون طعامه الغسلين، ومنهم من يكون طعامه الزقوم ومنهم طعامه الضريع، ويمكن أن يكون طعامهم جميع ذلك، فتارة يأكلون من هذا، وأخرى من ذلك، والله أعلم.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ بالمشاهدات والمغيَّبات، وذلك يتناول الخالق والمخلوق، والدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ على الله، هو محمد ﷺ يبلِّغه عن الله، فالمراد بالرسول هنا النبي ﷺ، وقيل: جبريل عليه السلام، على معنى أن الذي نزل بالقرآن من عند الله هو جبريل، والقول الأول هو الأظهر، لأن الله تعالى ذكر بعده، أنه ليس بقول شاعر، ولا كاهن، والقوم ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر، والكهانة، بل كانوا يصفون به الرسول ﷺ، فهو كلام الله أظهره في اللوح المحفوظ، وكلام الرسول ﷺ بمعنى أنه أظهره، وقرأه على الخلق.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ ﴾ كما تدَّعون تارة ﴿ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ إيماناً قليلاً.

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ ﴾ كما تدعون تارة أخرى ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً، والقلة في معنى العدم، يقال: هذه الأرض قلما تنبت، أي لا تنبت أصلاً والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون أصلاً.

﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي تنزيل من عند الرحمٰن، رب الخلق أجمعين.

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ أي ادعى علينا شيئاً لم نقله، سمَّى الافتراء تقولاً لأنه قول متكلف.

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴾ أي بيمينه. .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك، وهو أن يأخذ الجلَّاد بيمينه، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه، وقال ابن عباس ﴿باليمين﴾ أي بالقوة والقدرة.

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

﴿ فَمَا مِنكُم ﴾ الخطاب للناس ﴿ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ من زائدة ﴿ عَنْهُ ﴾ أي عن المقتول ﴿ حَٰجِزِينَ ﴾ أي دافعين، أي ليس أحد منكم يحجزه ويمنعه منَّا.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم هم المنتفعون به.

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي نعلم من يكذب بالقرآن من المجرمين، فيجازيهم على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآخرة إذا رأوا ثواب المؤمنين وسعادتهم في الجنة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن ﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ لعين اليقين لا يحوم حوله ريب.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فسبح بذكر اسمه العظيم، تنزيهاً له تعالى عن افتراءات أهل الضلال، وعما يقوله هؤلاء السفهاء، والله أعلم بمراده.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحاقة»

* * *

سُورَةُ المَعَارِجِ

مكية وهي أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ أي دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي استدعاه، والسائل هو «النضر بن الحارث» فإنه قال: ﴿اللهمَّ إن كانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أو أبو جهل فإنه قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأله استهزاء[1]، وصيغة الفاعل للدلالة على تحقق وقوعه.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي دعا للكافرين واستعجل بعذاب واقع على الكفار ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي ليس لذلك العذاب رادٌّ إذا نزل.

---

(١) استعجل مشركو قريش نزول العذاب عليهم، وطلبوا من الرسول ﷺ حين خوَّفهم عذاب الله، أن يعجّل لهم العذاب، قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء كما قال سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده﴾ فنزل أول هذه السورة، رداً على أولئك السفهاء.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي واقع من عند الله ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذي المصاعد التي تصعد فيها الملائكة، بالأوامر والنواهي، وتنزل بأمره سبحانه ووحيه.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿تَعْرُجُ﴾ أي تصعد ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام زعيم الملائكة ورئيسهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه سبحانه، ومهبط أمره، وقيل هو من قبل قول إبراهيم عليه السلام ﴿إني ذاهبٌ إلى ربي﴾ أي إلى أمر ربي ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مما يعدُّه الناس، وهو بيان لغاية طوله، بحيث لو قدر قطعها في زمان، لكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنة، وقيل: ﴿في يوم﴾ متعلقٌ بواقع، فالمراد به يوم القيامة، واستطالتُه إمَّا لأنه كذلك في الحقيقة، لأن يوم القيامة له أولٌ، وليس له آخر، أو لشدته على الكفار، وأيًّا ما كان، فذلك في حق الكافر، أمَّا في حق المؤمن فلا، لما روي عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها في الدنيا»[1].

﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ متعلق بسأل سائل، لأن استعجال العذاب من الكافرين،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٧٥ والبيهقي، وابن حبان، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٦/ ٢٦٤.

على وجه الاستهزاء والتكذيب، وكان ذلك يضجر رسول الله ﷺ، فأُمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع ولا شكوىٰ.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾.

﴿إِنَّهُمْ﴾ الكفار ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ مستحيلاً أو بعيداً عن الإمكان، فلذلك يسألون به.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي كائناً لا محالة، هيناً في قدرتنا، والجملة تعليلٌ للأمر بالصبر.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أي ذلك العذاب الذي يستعجلونه، سيرونه يوم تصبح السماء سائلة كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، ويكون من الأحوال والأهوال ما لا يوصف.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، فإذا فُتِّتت وطُيِّرت في الجو، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل قريب قريباً عن أحواله، ولا

يكلّمه، لابتلاء كل منهم بما يشغله عن ذلك، وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه وأمه وأبيه﴾ الآية.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يبصر بعضُهم بعضاً، فيرى الرجل أخاه وصديقه، فلا يخفون عليهم، وما يمنعهم من التساؤل، إلا تشاغلهم بحال أنفسهم ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ أي يتمنى المشرك وقيل كل مذنب، وهو مستأنف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه، بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه، فضلاً أن يهتم بحاله، ويسأل عنها ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي العذاب الذي ابتلوا به يومئذ.

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ أي زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ أي أخيه الذي ولدته أمه.

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي عشيرته الأدنين ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ أي تضمه في النسب إليها.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين والخلائق ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ثم للاستبعاد، يعني لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك لفعله، وهيهات.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم وتأنيب له، ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار، دلَّ ذكر العذاب عليها ﴿لَظَىٰ﴾ وهي عَلَم للنار، منقول من اللَّظى بمعنى اللهب.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿نَزَّاعَةً﴾ قلاَّعة ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ أي أطراف الإنسان كاليدين، والرجلين، أو جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿تَدْعُوا۟﴾ بأسمائهم يا كافرُ، يا منافقُ، إليَّ إليَّ[1] ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة، فكان عاصياً فاجراً.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ فجعله في وعاء ولم يؤدّ حق الله فيه، وتشاغل به عن الدين، وعبادة ربِّ العالمين.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي شديد الحرص، قليل الصبر، ويفسّره الآتي، وهو قوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم، بلسان صحيح فصيح، تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطيرُ الحبَّ ـ اهـ تفسير ابن كثير.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي الضُرُّ ﴿جَزُوعًا﴾ أي يكثر الجزع والضجر.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ السعة ﴿مَنُوعًا﴾ أي كان مبالغاً في المنع والإمساك، ينسى فضل الله عليه، فيشح ويبخل.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء من المطبوعين على القبائح الماضية.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ أي الصلوات الخمس المفروضة ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي نصيب معيَّن، هي الزكاة لأنها مقدرة معلومة، أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه، يؤديها في أوقات معلومة.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل لحاجته ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء، يصدِّقون بأعمالهم بالطاعات البدنية والمالية، طمعاً في المثوبة الأخروية.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون على أنفسهم، مع ما لهم من الأعمال الفاضلة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي خائفة ألاَّ يتقبل الله عملها الصالح.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي لا ينبغي لأحدٍ أن يأمن عذابه جلَّ وعلا، فالأمور بخواتيمها، والخشية من الله دليل الإيمان ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ يحفظونها عن الزنى والفواحش.

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أي غير مؤاخذين لأنها فيما أباحه الله لهم.

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ أي فمن طلب غير الزوجة وملك اليمين، فأولئك هم المعتدون، المجاوزون الحدَّ في الطغيان والإجرام.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ أي يؤدون الأمانات، ويحفظون العهود.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ يقيمونها بالعدل، بلا ميل إلى قريب أو شريف، ولا يكتمونها، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات، لإبانة فضلها، لأن في إقامتها إحياء الحقوق.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يراعون شرائطها، ويكمِّلون فرائضها، وسننها، وآدابها، كرَّر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم العبادات، وتكرار الموصولات، لتنزيل اختلاف الصفات، منزلة اختلاف الذات، إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة، نعتٌ جليلٌ على حياله، له شأن خطير، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي أصحاب هذه الصفة ﴿ فِى جَنَّٰتٍ ﴾ أي مستقرون في قصور عالية في جنان النعيم ﴿ مُّكْرَمُونَ ﴾ فيها بأنواع الإكرام.

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ كتب مفصولاً اتباعاً لمصحف عثمان رضي الله عنه، أي ما لهؤلاء الكفرة المجرمين ﴿ قِبَلَكَ ﴾ أي حولك ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي مسرعين، نزلت في جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه، ويستهزئون به ويكذبونه.

﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي عن يمينه ﷺ وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ أي فرقاً شتَّى جمع عِزَة، وأصلها عزوة والعِزَةُ وزان عِدَة: الطائفةُ من الناس يأتون متفرقين، يقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنّها قبلهم، فنزل قوله تعالى:

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان؟ وهو إنكار لقولهم المذكور.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿كَلَّآ ۖ﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من نطفة قذرة، لا تناسب عالم القدس، فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة، ولم يتخلق بالأخلاق الملكية، لم يستعدَّ لدخولها، فمن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنة، وهم مكبون على الكفر والفسوق والفجور؟.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ مطالع الشمس ﴿وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ مغاربها، والمعنى: إذا كان الأمر كما ذُكر، فأقسم برب المشارق والمغارب.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي على أن نهلكهم، ونأتي بخلق أمثل منهم، وأطوع لله تعالى، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي ولسنا بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي دعهم في غيهم وضلالهم، يتلهون بالدنيا الفانية، حتى يُلاقُوا ذلك اليوم العصيب الرهيب الذي ينتظرهم، وهو أمر يحمل بين جنباته الوعيد والتهديد.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من القبور ﴿سِرَاعًا﴾ أي مسرعين إلى الداعي ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ وهو كل ما نُصب وعُبد من دون الله تعالى[1]، أو إلى شيء منصوب كالعلم والراية ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون الخُطا.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي ذليلة أبصارهم، يغشاهم الذل والهوان من كل مكان ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي ذلك هو اليوم الذي وُعدوا به في الدنيا، وهم يكذبون به ويهزؤون، فاليوم يرون عقابهم وجزاءهم. والله تعالى أعلم بمراده.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المعارج»

* * *

(١) في هذا التشبيه تهكمٌ وسخرية لاذعة، تتناسق مع وصفهم في الدنيا، فقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب والأصنام في الأعياد ليعبدوها، وها هم يسارعون اليوم إلى نار الجحيم ليقتحموها ﴿كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون﴾ أي يسرعون، فما أروعه من تصوير؟!.

سورة نوح

مكية وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ﴾ أي بأن قلنا له: أنذر وخوِّفْ قومك الكافرين.

﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ هو عذاب الآخرة، أو الدنيا.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ أي أنا لكم منذر، موضح لحقيقة الأمور، أضافهم إلى نفسه، إظهاراً للشفقة عليهم.

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ ﴾.

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وذروا عبادة الأوثان، وخافوا عقابه، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما سبق، فإن الإسلام يمحو ما قبله ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو أقصى ما قُدِّر لهم بشرط الإيمان والطاعة، أي يمهلكم إلى انتهاء أعماركم، دون عقوبة ولا عذاب، وأما العمر فمحدود لا يزيد ولا ينقص، وإنما المراد تأخيرهم لاستكمال أعمارهم، دون عقاب ولا عذاب ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما قُدِّر لكم، على تقدير بقائكم على الكفر ﴿ إِذَا جَآءَ ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ أي لا يتأخر نزوله. فبادروا إلى الإيمان قبل فوات الأوان!! ﴿ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي لو عرفتم ما يحلُّ بكم من الندامة، عند انقضاء الأجل، ما عبدتم هذه الأوثان.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى ﴾ أي قال نوح مناجياً ربه، حاكياً ما جرى بينه وبين قومه، بعدما بذل في الدعوة غاية المجهود، قال يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان ﴿ لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أي دائماً بلا فتور، في الصباح والمساء، والليل والنهار.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أي فلم يزدهم دعائي لهم إلاَّ نفاراً وإدباراً.

﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ لكيلا يسمعوا كلامي ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي وتغطوا بثيابهم لئلا يبصروني، أولئلا يعرفهم فيدعوهم ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ عن اتباعي ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ أي شديداً، وذكرُ المصدر دليل على فرط استكبارهم.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي دعوتهم دعاء جهاراً.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر، أي فدعوتهم تارة بعد تارة، على وجوه متخالفة من السر والعلن.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ للتائبين، وكأنه لما أمرهم بالعبادة، قالوا: إن كنا على حقٍّ فلا نتركه، وإن كنا على باطل، فكيف يقبلنا الله؟ فأمرهم بما يمحو معاصيهم، ويجلب إليهم الخير، ولذلك وعدهم بما هو أوقع في قلوبهم، وأحب إليهم، من الفوائد العاجلة.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ ﴾ أي المطر ﴿ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ كثير الدرِّ، أي غزيراً متتابعاً.

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ أي يزدكم ويكثركم بالرزق ﴿وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتين وحدائق غناء ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم وهذا كله مما يميل إليه طبعُ البشر، وقيل: لمَّا كذبوا بعد تكرار الدعوة، حبس الله عنهم القطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخصب، والعيش الرغيد، ويدفع عنهم ما كانوا فيه من الضيق.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ أي ما لكم أيها القوم لا ترهبون عظمة الله وجلاله؟ وهو إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله وقاراً.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ الطَّوْرُ بالفتح: الحالةُ والهيئة، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين في أطوار متباينة، عناصر، ثم أغذية، ثم أخلاطاً، ثم نطفاً، ثم عَلَقاً، ثم مُضَغاً، ثم عظاماً ثم لحماً، ثم أنشأكم خلقا آخر، فإن التقصير في توقير من هذه شؤونه مما لا يكاد يصدر عن العاقل.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي بعضها فوق بعض، كتطابق بناية ذات أدوار.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي في السماء الدنيا منوّراً لوجه الأرض، في ظلمة الليل، ونسبته إلى الكل مع أنه في السماء الدنيا، لما أنها محاطة

بسائر السماوات[1] ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يزيل ظلمة الليل، ويبصر أهل الدنيا في ضوئها وجه الأرض، ويشاهدون الآفاق، كما يبصر أهل البيت في ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي أنشأكم منها، كما يخرج النبات من الأرض، فاستعير الإنبات للإنشاء، لكونه أدل على الحدوث، والتكون من الأرض، ولم يقل إنباتاً، لأن الإنبات صفة لله تعالى، غير محسوسة لنا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت بالدفن ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث ﴿إِخْرَاجًا﴾ محققاً لا ريب فيه، أكَّده بالمصدر، دلالةً على أن الإعادة محقَّقة، لا شك فيها.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلبون عليها كما يتقلَّب الرجل على بساطه[2]، فهي فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالفراش والبساط.

---

(١) صحَّ كون القمر في السماوات مع أنه ليس داخلها، بل تحت السماء الأولى، بدليل قوله سبحانه ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وأقربُها إلينا القمر، ذلك لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف، كما نقول: عليٌّ في المدينة، وهو في جزء منها، وليس في جميع أنحاء المدينة، فالقمر تحت السماء الأولى، وهو مع جميع الكواكب محاط بالسماوات السبع، فكأنه فيها، ولهذا نقول: إن وصول الإنسان للقمر ممكن، وقد حدث فعلاً، وليس فيه اختراق للسماوات، فتنبه إلى معاني الآيات رعاك الله.

(٢) ليس معنى الآية أن الأرض منبسطة غير كرويةٍ، بل المعنى أن الله سبحانه قد جعلها فسيحة واسعة، ممتدة الأرجاء، كالبساط الذي يفترشه الناس، ليست كلها جبالاً =

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا﴾ أي طُرُقاً ﴿فِجَاجًا﴾ أي واسعة أو مختلفة تنتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ مناجياً له تعالى ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أي تمادوا على عصياني وتكذيبي، مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعظة والتذكير ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي استمرَّ فيهم السفلة والفقراء، على اتباع رؤسائهم، الذين أبطرتهم أموالهم، وغرتهم أولادهم، فصار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي كبيراً في الغاية، متناهياً في المكر والدهاء، ومكرُهم احتيالُهم في الدين، وتحريش الناس على أذى نوح عليه السلام، وصدُّ الناس عن الإيمان به.

= ووديااناً، بل فيها السهول الفسيحة، ليبني عليها الإنسان ويزرع، وكروية الأرض أمر مقطوع به، عرفه علماؤنا الأقدمون، وقد سئل ابن تيمية كما في الفتاوى ٦/ ٥٨٨ عن السماوات والأرض، هل هما جسمان كرويان؟ فأجاب لا أعلم في علماء المسلمين المعروفين، من أنكر ذلك، إلا من لا يؤبه له من الجهال، واستدل بآية ﴿كل في فلك يسبحون﴾ وبآية ﴿يكور الليل على النهار﴾ وقال: التكويرُ هو التدوير.. الخ وقال الألوسي ٢٩/ ٧٦: وكرويتها، كالأمر اليقيني، والكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً، أ هـ.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الرؤساء لسفلتهم ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي عبادة آلهتكم على وجه العموم ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ صنم على صورة رجل ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ صنم على صورة امرأة ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ وهو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ على صورة فرس ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر، أي هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم، وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب، كما روى البخاري عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أما «وَدٌّ» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأمّا «نسر» فكانت لحمير، أسماء رجال صالحين من قوم نوح..»[1] الحديث.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ أي الرؤساء ﴿كَثِيرًا ۖ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي هلاكاً ودماراً.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ أي بسبب خطيئاتهم المعدودة ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المراد عذاب القبر فهو عقب الإغراق، وإن كانوا في الماء،

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ٨/ ٦٦٧.

فالآية دالة على إثبات عذاب القبر، لأن فاء التعقيب تدل على هذا، ولا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلاَّ بطل معنى الفاء، التي تفيد معنى الترتيب والتعقيب، فإن قيل: إنا نشاهد أنهم ماتوا في الماء؟ فالجواب إن هذا الإشكال إنما جاء لاعتقاد أن الإنسان هو مجموع هذا الهيكل، وهذا خطأ، لما أن الإنسان هو الذي كان موجوداً من أول العمر، ثم أجزاؤه دائماً في التحلل والذوبان، ومعلوم أن الباقي غير متبدل، فالإنسان عبارة عن ذلك الباقي، وتنكير النار لتعظيمها وتهويلها ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ أي لم يجد أحد منهم، واحداً من الأنصار، وفيه تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله تعالى، وبأنها غير قادرة على نصرهم، وهذه الآية حجة على كل من عوَّل على شيء غير الله تعالى.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي أحداً يدور في الأرض، وهو من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال ما بالدار ديَّار.

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ أي إن تركتهم يا رب ولم تهلكهم ﴿ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ عن طريق الحق ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ أي إلا من سيفجر، وسيكفر، وإنما قاله لاستحكام علمه، بما يكون منهم، ومن أعقابهم، واستقرأ أحوالهم قريباً من ألف سنة.

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ توجَّه نوح عليه السلام لربه، بهذا الدعاء الخاشع المنيب، فبدأ بالدعاء لنفسه

أولاً، ثم لأبويه ثانياً، ثم لمن زار بيته ثالثاً، ثم عمَّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا توجيه لكل مسلم أن يدعو بالمغفرة لنفسه، ولوالديه، ولجميع إخوانه من المؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي إلا هلاكاً وخساراً، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم جميعاً. والله أعلم بمراده.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه اجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة نوح»

* * *